فى ليلة العيد* ...

للأستاذ على الطنطاوى

يأيها الغافلون ... إن هذا العيد ليس لنا .
إن أعيادنا مخبوءة فى ثنايا الماضى
الفخم ، ومطاوى المستقبل المنتظر .
« على »

مشيت ليلة العيد فى حاجٍ للعيال ، فتأخرت فى السوق ، فركبت (الترام رقم ١) لأروح الى الدار ، فكان مجلسى فيه قبالة شيخ ساهم رازم ، عظيم اللحية ، كأن رأسه ولحيته ثغامة بيضاء ، زرىّ الهيئة ، رثّ الثياب ... فأشرت إليه بالتحية وابتسمت له ، فلا والله ما طرف ولا تحرك ولا ألقى إلىّ بالاً ، فجعلت أعجب منه ، وأحاول أن أذكر من هو ، وأين رأيت هذا الوجه ، فلا أدرى أين لقيته ولا أعرف من هو . ولا أستطيع أن أميز هذه الصورة من بين المئات من الصور التى اختلطت فى نفسى وانطمست وضلّت عن أصحابها ، ولكنى كنت على مثل اليقين بأن لى بهذه الصورة عهداً ... فلما بلغنا الدرويشية رأيت الشيخ يتحسس عصاه وبصره عالق بى ، فأدركت أنه أعمى وانه ينظر بعين قائمة ، (١) وعلمت سرّ امتناعه عن ردّ السلام . فرثيت له واشفقت عليه ، فلما سقط على العصا اعتمد عليها ، فقام يتلمس الطريق ، فهاجني الفضول وأثارتني الشفقة فقمت أتبعه ، فاذا هو ينزل من الترام فيميل عن الجادّة ، ويتجنب هذه البنى الجديدة ويتغلغل فى تيك الخرائب ، يضرب فيها على غير هدى ، وأنا أتبعه مغتما متألما ، أكره هذه الظلمة الداجية ، وهذه الخرائب الموحشة ، وأزمع العودة فلا تطيب نفسى بفراق هذا الشيخ وتركه يتخبط وحيداً فى هذه المجاهل ، فتعوذت بالله « من شرّ غاسق إذا وقب » ودنوت منه فحيّيته وسألته :

ـ أتريد مساعدة يا عمّ ؟

ـ قال : جزاك الله خيراً يا بنى ... فمن أنت ؟

ـ قلت : عابر سبيل رآك فأحبّ مساعدتك

قال : أحسن الله اليك . . . قل لى : أين نحن ؟

ـ قلت : فى خرائب الدرويشية

قال : أعرف ذلك . . . هل وازينا القلعة ؟

ـ قلت : نعم

قال : هل ترى قوسين كبيرين قائمين وسط هذه الأطلال ؟

ـ قلت : نعم . . هذه دار آل ه ...

ـ قال : أتعرفها ؟ (وبكى)

قلت : نعم أعرفها . فمالك تبكى يا عمّ ؟

قال : تلك والله دارى يا بنى

فلما قالها صعقت وذكرت أين لقيت هذا الرجل ، وعرفت من هو . ولكن ما بال هذه الشيبة ، ما هذه العصا ، ما هذه الثياب ؟ ما الذى أناخ عليه فهدّ شبابه ؟ أىّ سهم من سهام الدهر أصمى بصره ؟ حرت وحزنت ولكنى تجاهلت وقلت :

ـ دارك أنت يا عمّ ؟

ـ قال : إى والله يا بنى . . . ألم تسمع بها ؟ لقد كانت من أجل دور دمشق . لقد كان من تحت هاتين القوسين قاعة من أفخم القاعات ، يؤمها السيّاح من أوربا وأمريكا ليروها ويعجبوا بما فيها . لقد كان فيها بركة مصنوعة من ألف وثلثمائة قطعة صغيرة من الأحجار الملوّنة . . . لقد دفعوا الى فى سقفها الخشبى ثمانية آلاف دينار . . . ولكن ما فائدة الكلام ؟ لقد خسرت ما هو أعزّ علىّ منها : زوجتى وأولادى . . .

(وانطلق يبكى بكاء موجعاً)

لقد كان ذلك ليلة العيد ، فى مثل هذه الليلة . . . وكنا قد ذقنا فى رمضان الأمرّين من الخوف والرعب ، وكنا كأننا فى ساحة حرب : بينما نحن جالسون آمنون ، إذا بالرصاص يصفر ، وإذا هى المعركة : يهجم عشرون من الثوار ، فيطاردون جيشاً فيلجئونه الى القلعة ويضطرونه الى الاعتصام بجُدُرها ، ويؤوبون وقد غنموا ما شاءوا من مجد ومال وعتاد ، فيخرج أولئك ، فيتبخترون بالساحة (يطلبون الحرب وحدهم والنزال) ، وتنطلق أفواه المدافع تلقى خطب البطولة على النساء والأطفال :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلاّ برزت الى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر

* * *

آه يا بنى . لا تلمنى إذا بكيت . وأذهب البكاء بصرى ، فقد سحقت المصيبة قلبى . . . كان ذلك ليلة العيد ، وكانت الدار

(*) لايفهن فى وهم أحد من القراء انى أصف شخصاً بعينه ، أو أسرة بذاتها ، فلست اكتب تاريخاً ، ولكنى أكتب قصة

(١) العين القائمة هى التى ذهب بصرها ، وبقيت حدقتها سالمة ،

تضحك سروراً ، وترقص بهجة ؛ وكان الأطفال ينتظرون مدافع العيد ، ليفرحوا ويمرحوا ، ويأخذوا عيديّاتهم . . . فلما انطلقت هتف الأطفال ، وصاح النساء ، وابتسم الرجال ، ولـكن . . .

آه من لـكن . . . لقد هدّت (لـكن) كياني ؛ لقد طمست بصري ؛ لقد جعلتني قبراً يمشي ، ولـكن هذا السرور لم يدم ؛ ولم تكن إلا لحظة حتى استحال الهُتاف بكاء ، والصياح ولولة ، والابتسام حيرة وجزعاً . لم تكن مدافع العيد ، بل كانت مدافع الموت نزلت على أجمل دار في دمشق ، وأهنأ أسرة فيها ، فجعلت هذه الأسرة موزّعة بين الموت والشـقاء ، وهذه الدار مقسّمة بين النار والدماء ، ثم انجلت العاصفة ، فاذا هذه الدنيا الناعمة العريضة تلّ من التراب . . .

لقد حزنا وجزعنا ، ولم ندر ماذا نصنع ، فحملت الأم طفلها الرضيع ، وأمسكت بطفلها الآخر ، وكادت تنجو لولا أن عاطفة الأمومة قد عادت بها لتنقذ سائر أولادها ، فسدت النار سبيلها فابتغت سبيلاً غيره ، فاستقبلها اللهب ، فماتت هي وأولادها ، يلفّهم كفن من لسان النار الأحمر . . .

أما أنا وولدي الشاب — رحمة الله على شبابه . . . آه ! — أما نحن فما زلنا نجيء ونذهب ، نحاول أن ننقذ هـذا ونخلص هذه ، حتى حملنا الجميع وكدنا ننجو ، بل لقد نجوت أنا ، وتلفت لأراه فحال بيننا اللهب ، ورأيته يشير إليّ بسـلام المودع ثم يسقط صريعاً . . .

لم ينج إلا أنا وولدي الصغير ، وليته لم ينجُ ، ولكن ماذنبه هو ؟ إنه بريء ، إنه نشأ على الفضيلة والعفاف ، وربي على الاستقامة والشرف ، فـكان أكمل التلاميذ خلقاً وأجلهم خلقاً ، وأقومهم سيرة ، وأكثرهم اجتهاداً ؛ لم يعرف قط إلا طريق المدرسة ، حتى إذا وقعت الواقعة لم يع على نفسه إلا وهو يدور في الأسواق ليلاً بازار النوم ، فاستحيا وجزع وعاد إلى الدار . . . فلم يجد داراً ، وجد بقعـة من جهنم وقودها الناس والحجارة ، فارتد هائماً على وجهه ، وكان ذلك آخر عهدي به

لقد نسي من بعد هذه الفترة من حياته ، نسي أباه المفجوع وأمه الشهيد ، وأخاه القتيل ، وأهله الصرعى ، واستقر في نفسه أنه مخلوق نبت من الأرض ، بين سوق علي باشا ، والسوق العتيق ، وشارع النصر ، وميدان المرجة ، ثم قادوه بعد إلى معابد الرذيلة ، الى مذابح الأخلاق ، إلى هـذه المزابل القذرة ، إلى العباسية وأولمبيا وتاجادا فقتلوه . . . آه يا بني إنهم لا يقتلون بالقنابل والرصاص والسيوف والخناجر إلا قليلاً ، ولـكنهم يقتلون دائماً ، يقتلون الأمم بالحانات والقينات (الأرتستات) والأزياء والمدارس والقوانين . . .

وأدرك الشـيخ العجزُ فهوى إلى الأرض وهو يبكي ويشهق ، وأن نفسه لتكاد تخرج في شهقة من شهقاته

* * *

كانت الأنوار تشع من العباسـية ، وأولمبيا ، وتاجادا ، والأمبير ، وراديو ، وروكسي ، وهذه الملاعب الخشبية التي أقاموها على أطلال الدرويشية والسنجقدار احتفالاً بالعيد ، وكانت أصوات الموسـيقى ، ورنات الضحك ، وصيحات الفرح تشق سكون هذا الليل . . .

وكان الشيخ يجود بنفسه على أنقاض دمشق لا يدري به أحد

* * *

أما الشعب الثاكل فـكان يرقص على رفات الشهداء ، أما الشعب فقد كان يفرح بالعيد . . . . . .

علي الطنطاوي